ابطاله حتى يتوحد هذا المصير بمصير الرسالة التي يحملونها جميعا ، وتتقدم الحركة لتصل الى الرفض الكامل لقيم المجتمع القديم والاصرار على بناء قيم اجتماعية جديدة .

هنا يصبح لصيغة المتكلم المفرد مبررها الحقيقي، لانها تسمح لهذين العاملين (فلسطين والثقافة) بالتوحد ، داخل مسار انفجاري يلعب فيه الوعي (الثقافي) الدور الاساسي المحرك. فالتناقض داخل الطبقة السائدة لا يأتي كانعكاس لصراع طبقي حاد في المجتمع ، بل هو انعكاس للتفاوت بين مستوى تطور الوعي (الثقافة) ومستوى التطور الاجتماعي. ومن داخل هذا التفاوت يحدث الانفجار . أي ان الحركة المركزية في الرواية تفترض الجانب التغييري وحده في الثقافة الحديثة ، وتفترض بالتالي ان هذا الجانب يتناقض بشكل حاد مع العلاقات الاقطاعية. لذلك تستخلص دروس فلسطين بضرورة تحديث المجتمع .

٢ ــ الثوابت وعجلة الحركة :

تضع الرواية على أطرافها ثوابتا تجعل للحركة ايقاع التطور المتوازن . فالحركة الاجتماعية ، التي تتطور في الرواية ، تتوقف عند ثوابت محددة، لتأخذ منها توازنا غنيا يسمح لها بالمتابعة . الثابت الاساسي هنا هو فلسطين . لا تلعب القضية الفلسطينية دورها في الرواية بوصفها الخلفية التي تحدد حجم الحركة فقط . بل يستعين بها المؤلف ، ليسمح لنفسية بطله بالتطور في اتجاه واحد ، نحو الاندماج بالحركة الاجتماعية . لذلك تأتي ليلى خطيبته القتيلة لترمي بظلها على تطور علاقته الجديدة بسلافة « كنت لا ازال أسمع من بعيد التنهدات الطويلة من خلف الباب المغلق، وانتشرت أصابع ليلى الصفراء كالحاجز أمام عيني » . لكن هذه الاصابع لا تلبث ان تكتسب حيوية ولونا لانها تتوحد بجسد سلافة ، وتصبح فلسطين اطار التغيير ومحركه الرئيسي في آن . هذه اللازمة التي تتكرر في سياق الرواية تصل في النهاية الى اندماج البطل الكامل في عملية تغيير اجتماعية معقدة ويخفت صوتها تدريجيا حتى لا تعود متميزة في خاتمة الرواية . كما تلعب أصوات باعة اليانصيب دور ثابت سماعي ، يسمح للفواصل بين حركات الرواية بضبط هذه الحركة من جهة وتقطيعها الى أصوات متعددة مؤتلفة داخل موقف واحد . فالثوابت هنا لا تمنع عجلة الحركة ، بل تؤكدها ، لانها تعطيها شكلا تطوريا لا ينحل بالتوازن الدقيق المفترض في عمل روائي واقعي . بل هو يشحن هذه الواقعية بأفق الاستمرار من داخل الصيرورة . من هنا تصبح الحركة واقعية تتطور بتطور المواقف نفسها ، وتأتي الاحداث لتشكل من ضمن تطور الحوادث نفسها ، انعطافات تصل الى حدود الانعطافات المفاجئة ، (كما في نهاية الرواية عندما تهرب سلافة من منزل والديها الى بيت جميل) . لكن القدرة على ربط هذه الانعطافات بثوابت محددة ، تحفظ للعمل الروائي وحدته التطورية بشكل عام ، بل وتجعل من هذه الانعطافات نقاط تلاق بالتجربة الاساسية التي تحرك العمل الروائي بأسره . فانهيار القيم الاجتماعية ، وتداعي العلاقات الانسانية يسمحان لنقاط التوازن (ذكريات فلسطين ورسالة شقيق جميل عن وضع النازحين وأصوات الباعة) بشد مفاصل الرواية الى اطار اوسع وأكثر شمولا . اطار المعركة العامة مع العدو .

٣ ــ حول مفهوم التغيير :

اذا كان القانون الاساسي الذي يحدد تطور الرواية (قانون التفاوت بين التطور الثقافي والواقع الاجتماعي) صحيحا ، فان مفهوم التغيير يرتبط هنا بسد فجوة التفاوت هذه عبر ثورة اجتماعية كاملة . لذلك يلعب المثقفون هنا هذا الدور الكبير ويجري اهمال أي اطار صراعي آخر . فحين يصف جميل الفران مظاهرات الطلبة والشعب ، فانه يبقى اولا خارج هذه المظاهرات ، ويتعامل معها بالتالي بوصفها أحداثا خارجية . فيصفها وصفا خارجيا مئة بالمئة مهملا كل الآلية النفسية الفردية والجماعية التي تتحكم بالمظاهرات الصدامية . ولذلك ايضا يأتي مفهوم التغيير في درجتين ، النقد، ومحاولة ردم الهوة .

أ ــ **النقد** : يأخذ النقد شكل رفض القيم الثابتة التي لم تعد تجاوب على متطلبات الحياة الحديثة . « قال عدنان مفسرا : نحن نعيش في المدن ولكننا نتبع شريعة الصحراء . والتقاليد القبلية الشريرة تمسك بتلابيبنا . سمعت ما قاله البدوي » . هكذا يبدأ النقد من العادات الاجتماعية ليصل الى المستوى السياسي . فالنضال يفترض العقلانية والتكنولوجيا « قلت هذا لا يقنعني .